قواعد أساسية في البحث العلمي والكتابة الأكاديمية 2

منهجية الكتابة المتشككة – الدحض والرفض
The Careful Sceptic Approach

د. وليد أحمد السيد
دكتوراة في فلسفة العمارة من (UCL) – جامعة لندن

تطرقنا في المساحة السابقة لفكرة أساسية متعلقة بالكتابة وهي (خير الكلام ما قل ودل), وعرضنا للطالب والباحث الأكاديمي شواهد مختصرة من العقل والنقل لتوضيح هذه القاعدة الذهبية المتبعة في البحث العلمي الغربي – والغائبة عن البحث الأكاديمي العربي وبامتياز! وفي مساحتنا هذه سنكمل الكلام حول قاعدة أساسية أخرى متعلقة بأسلوب ومنهجية الكتابة المتبعة "كأقنوم" مقدس في بنية البحث العلمي الغربي الرصين بما يعطي بعدا وعمقا للمؤلفات الغربية الأساسية من ناحية, وبما يقلل من هامش الخطأ في النتائج التي يتوصل إليها الباحث ويبعدها عن الرأي الشخصي القابل للدحض والنقض, على النقيض من معظم مثيلاتها في الأكاديمية العربية. وهذه القاعدة الأساسية الثانية التي نقدمها هنا هي (منهجية الكتابة الأكاديمية والعلمية التي تعتمد مدخلا حذرا متشككا في عرض المادة بنسبتها لمؤلفيها قبل تحليلها تحليلا منطقيا ثم مناقشتها على طريق دحضها أو قبولها).

وفي مساحتنا هذه فسنعمد لاستخدام بعض الأمثلة من الكتابات الشائعة, لتقريب الأفكار التي نطرحها لذهن القارئ لهذه السطور ومن وحي الواقع كي يختبرها بنفسه. ومن ناحية ثانية فتهدف هذه السلسلة, كخلاصة خبرة أكاديمية, إلى العمل على تشكيل ذهنية وعقلية عند طلابنا وباحثينا العرب لتحليل ونقد ما يقرأون ومعرفة بنية المحتوى التركيبي للمؤلفات التي تقرأ – حيث زاغ بعضها عن النقد والتمحيض وغدا "مرجعيا" لقلة خبرة معظم باحثينا وطلابنا بقواعد البحث العلمي الرصين. وقبل عرض المنهجية العلمية والأكاديمية الغربية الرصينة, دعونا نبدأ مساحتنا هذه "بالمقلوب" – بمعنى عرض المنهجية "الشائعة" في معظم, إن لم يكن جميع, المعاهد العربية والتي يتبعها أغلب الأكاديميين والباحثين العرب وعلى كافة المستويات – ما يعتبر منها "جيدا" قبل الردئ!

من يمسك بأي كتاب أو مؤلف عربي, وبخاصة ما يتعلق بتقديم "أطروحة ونظرية" وليس متعلقا "بالدراسات التاريخية" للفرق الطفيف بين منهجية كتابة الإثنين, سيلحظ مع فكرتنا الأساسية التي نقدمها هنا أن مؤلفه يكتب "بطريقة فوقية استعلائية" وإملائية على القارئ من السطر الأول. بمعنى أنه يبدأ الكتاب وينهيه بجمل يعتبرها "من المسلمات" والبدهيات المنطقية والحقائق التي يجب على القارئ "أخذها" دون نقاش! ففي أسوأ الحالات تكون كل جملة من جملة الكتاب, إما مغلوطة وإما قابلة للدحض وإثارة نقاش جدلي غير منتهي, وفي أحسن الأحوال ينزع الكاتب لاستمالة عقل وقلب القارئ على مبدأ "أرجو أن تثق بي" لاعتقاده بأن له رصيدا علميا وأكاديميا يعطيه "سلطة" أو شرعية على القارئ الذي يعتبره الكاتب غالبا أنه بسيط لا يستعمل عقله من ناحية, ومن ناحية أخرى يفترض الكاتب ابتداء أن هذا القارئ ما زال يحبو على سلم البحث الأكاديمي وكأنه طالب من طلابه وعليه "أخذ" الجمل في كتابه كحقائق ومسلمات فرغ البحث العلمي العربي من مناقشتها وغدت "قوانين" لا تخضع للأخذ ولا للرد. وقلنا قبل قليل أن هذا يتجلى بوضوح وبشكل فاضح وردئ في الكتب التي تبحث في "النظريات" أكثر من التاريخيات, لكون الأخيرة تنحو نحو سرد الوقائع أكثر من سابقتها التي تعتمد تمحيص المواد وتقديم البراهين بطرق عقلية وتسلسلية من البسيط نزوعا نحو (تركيبها تراكميا في سياق البحث "كحبكة القصة التسلسلية تماما") - وكما سنبحث في مساحة قادمة كقاعدة أساسية نناقشها بتفصيل. ولشيوع هذه الطريقة الرديئة في الكتابة "العربية" في المعاهد والجامعات العربية وبامتياز, لن يسعنا عرض أمثلة هنا, لكثرتها بشكل مذهل من ناحية, ولكيلا نتهم بالإساءة بشكل خاص ومتحيز ضد المثال الذي قد نستعمله من ناحية أخرى. ولذلك نترك للقارئ اختيار كتاب "عشوائيا" لفهم ما نقصد هنا.

هذه المنهجية الرديئة جدا في الكتابة الأكاديمية, شائعة جدا وبشكل مذهل في الكتابة العربية والبحث الأكاديمي العربي, لدرجة عدم ملاحظة "غرابتها" في الوسط العربي على الإطلاق! والملاحظ أنه وللأسف فكثيرا ما يعود الخريجون من المعاهد الغربية "وتعود حليمة لعادتها القديمة" للكتابة بالأسلوب الأكاديمي العربي الذي نقصد هنا – على افتراض أنهم تعلموا المنهجية السليمة أصلا – ويشرعون في تقديم المادة في مؤلفاتهم اعتمادا على كونهم أصبحوا "مرجعيات" وذوي رتب أكاديمية رصينة تؤهلهم للكتابة وتقديم الجمل في كتبهم بطريقة (إستعلائية إملائية فيها الكثير من "الغرور الأكاديمي"). واللافت أن المنهجية السليمة للكتابة قد لا يتلقاها الباحث في بعض المعاهد الغربية العادية, فمن تجربة خاصة لكاتب هذه السطور كمناقش خارجي لأطروحة دكتوراة بجامعة بإنجلترا, فقد حفلت أطروحة طالب عربي بأخطاء منهجية في عرض المادة على أسلوب "ثق بي فالمادة العلمية المذكورة هنا هي صحيحة ومعتمدة", وطفق يكتب ويجلب المعلومات من الشرق والغرب "كحقائق ومسلمات" دون نسبتها لأصحابها من ناحية, وبطريقة تخلط بين ما هو رأي الكاتب وبين آراء غيره ثانيا, ودون مناقشتها ثالثا. فالقارئ للنص بأطروحته بات لا يعرف ما هو منقول وما هو خاص بالكاتب, وهو أساسي جدا في أطروحتي الماجستير والدكتوراة تحديدا, وغيرها من الأوراق الأكاديمية العلمية. وبدون هذا التمييز الواضح, تصبح الكتابة ضمن النمط (الإستعلائي الإملائي ذي الغرور "الأكاديمي" الذي يطل صاحبه على القارئ من عليائه بازدراء وبعدم احترام لعقل القارئ), فضلا عن أنه يوقع الكاتب تحت طائلة "السرقة الأكاديمية" لأفكار غيره! – وهي ظاهرة عامة طامة في الوسط العربي, ولو كانت هناك محاكم وقضاء عادل ومعتمد في السرقات الأكاديمية العربية لعجّت السجون بالأكاديميين! بعد قراءتي للنص بأطروحة الطالب, بدأت مناقشتي له في الإمتحان بمحاضرة مختصرة توضيحية بيّنت له الخلل الأساسي في طريقة عرضه للمادة وأسلوب كتابته في أطروحته, وافقني عليها تماما الأستاذ الإنجليزي المشارك معي بالمناقشة, بما قاد لتوصيتنا بأن يعيد الطالب كتابة أكثر من ثلاثة فصول من أطروحته خلال ستة أشهر قادمة وإعادة تقديم الأطروحة من جديد قبل الحصول على الدرجة الأكاديمية وكشرط لحصوله عليها بعد التعديلات. ومما سرّني جدا, وسرّ الطالب نفسه أيضا كما عبّر لي, حصوله على نصيحتي الأكاديمية – وإن كانت متأخرة, إلا أنها كانت أفضل من عودته لمعهد عربي والإنضمام لقوافل من الأكاديميين العرب بمنهجية بحث وكتابة غير سليمة!

وفي موضوع السرقات الأكاديمية أو (Plagiarism), يحضرني حوار مع صديق درس في جامعة بانجلترا قبل سنوات. فبعد إنهاء دراسته وتخرجه مر بي بلندن, ودار بيننا نقاش تشعب حتى أتى على ذكر خريج عربي آخر من نفس الجامعة سابقا, رأى أطروحته في الجامعة بإنجلترا, وبتصفح رسالة الأخير سريعا والمحفوظة في أرشيفات الجامعة, وجد أن فصلا كاملا تعتمد عليه الرسالة, وهو عبارة عن مسوحات ميدانية وأرقام إحصائية لمدينة عربية, قد تمت "سرقته" حرفيا على أنها عمل الباحث اللص العتيد من رسالة ماجستير "مجازة" بمعهد عربي درّس فيها صديقي الذي روى لي القصة ويعرف الطالب أو الطالبة الذي قام ببحث الماجستير - حيث قام بمطابقة الأطروحتين والمعلومات بها! وفضلا عن أنه عمل "غير أخلاقي" وإجرامي بسرقة مجهود الآخرين, فصاحبه يضع نفسه تحت طائلة المسؤولية الأكاديمية ويتعرض "لإنذار" في حالات أو "للفصل" من الجامعة في حالات أخرى. وهذه الجريمة "الأكاديمية" لها مستويات تتدرج من الرجوع لأفكار الغير دون توثيقها ونسبتها لهم, إلى نقل حرفي لأجزاء كاملة من أعمال الغير, وانتهاء بشراء الشهادة الأكاديمية كما تبين مؤخرا, حيث اشترى عشرات الباحثين الأشاوس العرب والمسلمين شهادات ماجستير ودكتوراة من معاهد غربية منها جامعات مرموقة كأكسفورد, وتم نشر أسماء أكثر من 10 آلاف لص أكاديمي في قائمة على الإنترنت منهم عشرات في بعض المعاهد العربية ولهم مناصب أكاديمية وبعضهم حظي بامتيازات هائلة تم تجريدهم جميعا منها ونالوا جزاءهم! ونشر قبل أسابيع أن طلابا شرق أوسطيين دفعوا مئات آلاف الدولارات لرجل من كاليفورنيا مقابل تردده على الجامعات الأمريكية والدراسة فيها والخضوع للامتحانات بالنيابة عنهم. وفضح مسؤولون في قسم الهجرة الأمريكي العملية حين تبين أن نصابا أمريكيا تلقى مئات آلاف الدولارات من 120 طالبا لبنانيا وسعوديا وقطريا وكويتيا وتركيّا مقابل الدراسة والخضوع لامتحانات بدلاً منهم في عشر جامعات أمريكية. وبدأ هذا النصاب بالدراسة بدلاً عن هؤلاء في العام 2002. وازدهرت أعماله لدرجة أنه استعان بفريق عمل من بينه امرأة كانت تتنكر بزي رجل شرق أوسطي! (أنظر الخبر مثلا بصحيفة القدس العربي اللندنية في الوثيقة المرفقة أدناه).

وقبل مناقشتنا تاليا للمنهجية المعتمدة في المعاهد الغربية الرصينة بتفصيل, لا بد من تمييز واضح للقارئ والطالب في هذه المساحة بين أنواع الكتابة والمساحات المختلفة التي يقدمها كل من (المقال, والورقة, وأطروحة الماجستير أوالدكتوراة, والكتاب) ومتطلبات كل منها وكيف يتميز بعضها عن البعض الآخر في أسلوب وطريقة الكتابة نظرا لضيق أو زيادة مساحة كل منها.

القاعدة البدهية والمنطقية في عرض وتقديم المادة والأفكار هي أن (طريقة العرض "بالبرهان" والدحض والرفض والتحليل تتناسب "عكسيا" مع المساحة). بمعنى أن طريقة عرض الفكرة في (المقال) ذي المساحة الأقل من (الورقة والبحث الأكاديمية أو الكتاب) تختلف في تركيبتها الأساسية. ويندرج ضمن تصنيف المقال أيضا "المقابلة التليفزيونية" أو الإذاعية – من خبرة خاصة لكاتب هذه السطور. فالمقابلة المتلفزة أو الإذاعية لضيق الوقت بشكل خانق يصل لدقائق, وربما أجزاء من دقائق, يعتمد بدرجة كبيرة على (قصف مدفعي فكري مكثف ومركّز باستعمال جمل خبرية مفيدة جدا وقصيرة هي خلاصة ما يعتقده المفكر في موضوع ما). فليس هناك "ترف وقتي" في المقابلة بما يسمح بعرض مختلف وجهات النظر وتحليلها وتمحيصها, بل على المفكر في المقابلة التلفزيونية أو الإذاعية بدء حديثة بجمل وكلمات مختارة بعناية ومرصوصة بإحكام ليعطي للمشاهد أو للمستمع "خلاصة علمه وقراءاته وفكره ورأيه" للإجابة عن تساؤلات مقدم البرنامج. وربما تسنح, أو لا تسنح, له الفرصة لتفسير هذه الجمل "والقصف المدفعي الفكري المركّز" لاحقا. فعرض الأفكار في المقابلة المتلفزة يكون "بالمقلوب" وبعكس تركيبة أنواع العرض الأكاديمية الأخرى. ويتبع المقابلة التليفزيونية, وإن بدرجة أقل, المقالة سواء الصحفية أو في المقالات الطويلة في المجلات الثقافية – رغم أن لها تركيبة مختلفة تماما عن المقابلة المتلفزة سنعرض لها بتفصيل في مساحة مستقلة ومنفصلة قادمة. أما في مساحة أكبر, وأحيانا مماثلة لوقت المقابلة المتلفزة, فتنزع كتابة المقال لعرض فكرة "أساسية" ومناقشتها وطرح مختلف جوانبها بما ينحو لإقناع القارئ استنادا للعقل والبرهان والمنطق بوجهة نظر الكاتب في موضوع ما – وهي الغاية الأساسية للمقال.

البحث الأكاديمي وأطروحات الماجستير والدكتوراة وتأليف الكتاب هي مسألة مختلفة تماما ولها منهجية وأسلوب معتمد للكتابة الرصينة. وقد يخرق هذا الأسلوب في حالات خاصة جدا سنعرض لها لاحقا بعد عرض الأسلوب المنهجي العام والشائع في الجامعات والمعاهد الغربية المتميزة. فلكتابة أي نص أكاديمي سليم ينبغي توفر ثلاثة عوامل أساسية فيه: الأول – نزعة الحذر والتشكك في تقديم المادة الأدبية اعتمادا على مصادر, سواء أساسية أم ثانوية. والثاني – تقديم وعرض المادة بوضوح بحيث يفهم القارئ ويميز بين وجهة نظر الكاتب التي يتبناها في كتابه وأطروحته – بما يجعله تحت طائلة المسؤولية الفكرية والنقد – وبين الأفكار التي يعرضها فقط وينسبها لغيره ولا يتبناها. والثالث – هو تقديم المادة بتسلسل منطقي وعرضها "للشخص الثالث" – وسنبحث هذا في مساحة مستقلة قادمة مع أمثلة بتفصيل, لكننا سنلقي عليها ضوءا موجزا هنا بما تسمح به المساحة.

وهذه العوامل الثلاثة تغيب تماما عن معظم, إن لم يكن جميع, الكتابات العربية, حيث يختلط الحابل بالنابل, ويشرع جميع الكتّاب على اختلاف مستوياتهم الفكرية والبحثية في تقديم المادة والأبحاث, كخلاصات نهائية من الصفحة الأولى أو المقدمة. ولتوضيح ما ذكر, فالمستوى الأساسي الذي يجب على جميع الكتاب والباحثين والطلبة من المرور فيه هو بتطبيق المعادلات الثلاث في بحويهم تطبيقا كاملا وشاملا على بنية البحث أو الكتاب. فهناك مشكلة صارخة وأساسية في تقديم باحث لسلسلة متتابعة من الجمل "غير المنطقية" كجمل خبرية وعلى أنها حقائق مسلّم بها يقدمها للقارئ كما نقرأ في أحد النصوص التالية كمثال:

 ( ما الذي نعرفه كمهندسين ومخططين عن البيئة؟ ما هي المهارات التي نحتاجها وباستطاعتنا تقديمها للبيئة العمرانية لنرفع من نوعيتها وعطائها في أطر المفهوم الإسلامي؟( ما هو المفهوم الإسلامي - ماذا تقصد!!!) بالنسبة للمهندس في العالم الغربي فإن هذا السؤال لم يكن ذا أهمية حتى الماضي القريب لأنه تقبل البيئة كما هي (كيف تقبل المهندس الغربي البيئة كما هي يا صاحب النص!!!!)، لأن دوره في المجتمع كان تصميم وبناء مجموعة من المنشآت. أي أن المهندس يتعامل مع ما هو موجود في البيئة وماهو معطى له من موقع ورأس مال للمشروع وما إلى ذلك من معطيات ومتطلبات(!!!!). وهذا ناتج من الإطار الفكري الإشتراكي أو الرأسمالي (تم تلخيص الإطارين الإشتراكي والرأسمالي بكلمتين موجزتين مانعتين جامعتين في نص الكاتب!!!!) حيث إن القوى الاقتصادية المتصارعة في أمته تؤدي في النهاية إلى استئجار صاحب المشروع للمهندس, وعلى المهندس أن يقوم بتصميم وبناء أفضل ما يمكن لذلك الموقع أو المشروع دون الاكتراث (ما هذا التعميم!!!) بتأثير ذلك على عموم المجتمع. فالمهندس لا يفكر في البيئة ككل ولكن فيما هو معطى له لأنه اعتبر ذلك من واجبات غيره كالاقتصاديين والمشرعين بينما لم ولن (طبعا اطّلع الكاتب على الغيب وعلم أنه "لن" يتمكن أحد مطلقا!!!) يتمكن أولئك المشرعين بالتفكير في البيئة من كل جوانبها لافتقارهم للمهارات البيئية (ما هي هذه المهارات البيئية فلم نسمع عن هذا التعريف من قبل, عددها لنا يا صاحب النص!!!!)، فهناك حلقة مفقودة (!). ودورالمهندس بالطبع (تأكيد جازم وقاطع!!!!) في عالمنا الاسلامي متاثر بما هو في الغرب (نظرية المؤامرة الغامضة!!)، بسبب تقبل المهندس البيئة كما هي وإن استخدمها كمنبع لأفكاره أو كمصدر لانتقاده).

انتهى النص المقتبس – والقارئ المتأمل يستطيع ملاحظة أسئلة القراء الإفتراضية والتي قد تتدافع وتتزاحم مع غيرها – والتي بينّا بعضها خلال النص بين الأقواس مع علامات التعجب, حيث يتبين للقارئ الذكي سيل من الجمل التي تم تقديمها كمسلّمات ونتائج وبطريقة "استعلائية" إملائية للقارئ تخلو من نمط "تقديم الأفكار بحذر وتواضع وتشكك", فضلا عن أن كلا منها يحمل مغالطات واتهامات وخلاصات يعتبرها الكاتب "حقائق". وهذا النص لو ألقي كمحاضرة عامة على جمهور يحترم عقله لتدافعت الأسئلة عند كل كلمة وجملة أشرنا لها بعلامات التعجب, فليس في الوسط الأكاديمي المحترم جمهور ذكي يمكن أن يقبل بمثل هذه الترهات دون مناقشة, فضلا عن قبولها كجمل في كتاب منشور! ومن المفارقات التي تجدها في الأوساط الأكاديمية العربية تحول بعض هؤلاء الأكاديميين "المنظّرين" لمستثمرين عقاريين رأسماليين ومطورين عقارات تجارية, بحيث لا يستطيع بعض هؤلاء الكتّاب "تسويق" مثل هذا الهراء لأنفسهم, قبل غيرهم. وبحيث تكرس هذه النصوص الجوفاء ظاهرة الفصام النكد بين "النظرية" وبين "الواقع" في العالم العربي الذي يرزح تحت تخلف وانحطاط فكري عميق – نقولها وبكل أسف!!! وبينما عاش رواد ومفكرون عرب كحسن فتحي لأفكارهم وكافحوا لأجلها, ودفعوا ثمنا غاليا من عمرهم وعلى حساب سعادتهم الشخصية كأفراد, نجد معظم الأكاديميين اليوم قد برعوا في التنظير الأجوف, سعيا وراء أمجاد ومصالح براغماتية تؤكدها شواهد عديدة, وبخاصة الأكاديميين غير الممارسين للمهنة الذين لا يحسن أحدهم تصميم بيت صغير, ولم يمارس التصميم المعماري أصلا, لتجد بعضهم يستدعى "لعلاقاته" الخاصة لتحكيم المسابقات لكبار المعماريين في التطوير الحضري والتصميم المعماري! كيف لمن لا يتقن اللغة العربية أن يقوم بتحكيم مسابقة شعرية؟؟؟ وهذه من عجائب ما تقدمه "البطالة الأكاديمية المقنّعة" في العالم العربي, في غياب المعماري الأكاديمي وصاحب النظرية في شخص واحد معا!

وعودا لقواعد الكتابة الأساسية, فلتجنب الكثير من الأخطاء الشائعة في تقديم نصوص هزيلة وملغومة بالمغالطات الفكرية, أو تقليلها على الأقل, فالكتابة بالخضوع للنقاط الثلاثة أعلاه تغني الكاتب عن مزالق كثيرة. ومن المهم جدا تجنب استعمال الكلمات والنعوت والصفات التي تعطي نتائج متسرعة على الأفكار التي يجلبها الكاتب – وبخاصة في مقدمة بحثه وقبل الشروع في المناقشة والتحليل مثل كلمات (رائع, عظيم, بديع, ممتاز, الخ), فاستعمال هذه الكلمات في الكتابة الرصينة وللقارئ الذكي الخبير يعطي فورا انطباعا بتحيز الكاتب وخلو النص من الحيادية العلمية في القبول والرفض وتدبر المادة العلمية قبل قبولها من قبل الباحث.

وبمعرض كتابة نص مترابط ومنطقي وذي جمل سليمة, نستحضر هنا فكرة الكتابة "للقارئ الثالث", أو (write to the third reader!) وتعني أن الكاتب يتخيل أنه لا يكتب للقارئ العادي فقط, بل إن هناك شخصا "ثالثا" ذكيا وخبيرا يتابع ما يكتب ويقف فوق رأسه وكلما كتب فكرة ما, قام "الشخص الثالث" بطرح سؤال ذكي عليه من وحي الفكرة التي يكتب بها. وبكلمات أخرى, فهذا يعني أن الكاتب (يقلّب الأفكار التي يكتبها على وجوهها المختلفة بعرض مختلف وجهات النظر). وبحسب توجيهات مشرفي للدكتوراة, فالكاتب الجيد باختصار لا يكتب لقارئ صامت, بل لجمهور من المستمعين, تماما مثل إلقاء محاضرة عامة. فعليك أن تعرض النص بهذا الأسلوب, ولك أن تتخيل أنك كتبت جملة ما وبها بعض الغموض, فهذا فورا سوف يستثير سؤالا عند أحد المستمعين لك, وتتقافز الأيادي وترفع عاليا لاستفهامات وتوضيحات قبل أن تنتقل للفكرة التالية وهكذا! ولذلك فالكتابات الرديئة جدا, وما أكثرها, يعتبر الكاتب أنه يكتب لجمهور صامت, أو "نائم" كما قد يحدث في الصالات المعتمدة التي تعرض فيها الشرائح والصور, أو في أسوأ الحالات لقراء يعتبرهم الكاتب أنهم "شبه أغبياء" ويتيه الكاتب يمينا وشمالا في كتاباته – فهو عالم حكيم حليم واثق الخطى يعلو فوق القراء بعلمه ودرجته الأكاديمية كأستاذ فاضل, مما يعطيه – بنظره – الحق في أن يكتب كما يشاء لقارئ صامت غائب, نائم أو غبي! وفي أحيان أخرى يفترض الكاتب أنه يكتب لقراء متعاطفين ضمنا مع مع يخوض به من ترهات وأفكار. وهكذا تسهم أبحاث هذا الكاتب العتيد في تخلف البحث العلمي العربي أكثر وأكثر, وكلما كتب أكثر وارتفعت وارتقت رتبته الأكاديمية كلما زاد التخلف والإنحطاط أكثر وأكثر في العالم العربي بسيادة أمثاله من "أشباه الكتاب" و"أنصاف الباحثين", و"سدنة الصنم الأكاديمي" كما وصفتهم في أحد المقالات!

ومن هنا فأطروحة الكاتب – في جميع الكتابات الرصينة وتشمل الأبحاث الأكاديمية – ينبغي أن تعتمد على ثلاثة عوامل: أولا – طرح سؤال ابتدائي عام في بداية المقالة أو النص بهدف الإجابة عليه في الخاتمة, يتبعه سلسلة من الأسئلة "الثانوية" التي تتوالى بما يصب في خدمة السؤال العام الرئيس وبما تجيب عليه الأطروحة. وبمعنى آخر, فلأي أطروحة ماجستير أو دكتوراة سؤالان, واحد عام والثاني خاص, السؤال العام للأطروحة تشكل الإجابة عليه هدفا رئيسا للأطروحة, أما السؤال الثانوي, أو غالبا سلسلة من الأسئلة الفرعية تبرز خلال النص والفصول, فتصب الإجابات عليها في الإجابة عن سؤال الأطروحة الأساسي والعام وتقدم للبحث العلمي معلومات علمية جديدة أو (Original). وبقدر ما يجتهد الطالب أو الباحث في الإجابة عن السؤال الفرعي أو الأسئلة الثانوية التفصيلية, بقدر ما يجيب ذلك بشكل أفضل عن السؤال الأساسي العام ويناقش فرضية الأطروحة الأساسية. ومن الأمور المهمة الأخرى في أي نص أكاديمي محترم ورصين هي أن يبين الكاتب للقارئ ما ينتظره في الفصل أو القسم الخاص من الفصل. بمعنى أن يستهل الكاتب فصول الأطروحة بفقرة أساسية توضيحية لتركيبة الفصل في بدايته, وأن يختم الفصل بفقرة تلخيصية ختامية ويقوم بالتمهيد للفصل التالي, وتلخيص ما تمت مناقشته في الفصل السابق وعلاقة الفصل الجديد بما سبقه. فمن المرفوض أكاديميا أن "يسرح" الكاتب "ويمرح" على هواه يمينا ويسارا بالنص في الوقت الذي يحار القارئ إلى أين سينتهي به المطاف في قراءة غير منتهية "وهائمة على وجهها" في صحراء التيه والضياع الفكري! وهذا مما يستفز القارئ الذكي, وبخاصة المناقش والممتحن الأكاديمي ويؤلب الممتحن على النص وعلى الطالب مسبقا. وسنعرض أمثلة تفصيلية في مساحات قادمة.

ومن أردأ أنواع الكتابة هو النوع (الذي يتحكم فيه "النص" بالكاتب وليس العكس). فيجد القارئ عموما أن الكاتب "يقفز" بين فقرة وأخرى "قفزات فجائية" غير منطقية وغير مترابطة, وهذا مرده "الإفلاس الفكري للكاتب", وعندها يعرف القارئ الذكي أن المادة المتوفرة هي التي تتحكم بدفة النص وليس الكاتب! وهذا يكون سببه الرئيس في الغالب عدم توفر معلومات وأطروحات متباينة ووجهات نظر مختلفة من ناحية, أو لعدم وجود فرضية نظرية قوية, أو عدم وجودها أصلا في البحث أو الكتاب, أو ضعف الكاتب في الكتابة ومناقشة الأفكار بحيث "تتحكم" المعلومات المتوفرة في وجهة سير الكتابة وفي الكاتب معا! ويبدو للقارئ الخبير الذكي أن "النص" غير مترابط التركيبة ومتقطع الأفكار وأن الكاتب غالبا ما قام بجمعه على نمط (Cut & Paste). وأنه قام بتجميعه وجلبه من مصادر متفرقة ودون "عمل فكري واعي ومنظم ودون أن ينضوي تحت فرضية وقصة متسلسلة تجيب عن أسئلة محددة وخاصة بالنص والأطروحة". وفي أسوأ الحالات يبدو للقارئ المتأمل أن النص لم يكتب من الألف إلى الياء بشكل منتظم ومنظم وإنما كان الكاتب يراوح بين الأفكار ويقوم "بحشو" المعلومات ضمن النص "حشوا" كما تيسرت! وهذه السلبية تكاد تكون طاغية في الكتب الشائعة العربية لدرجة مذهلة. ويمكن للقارئ تبين ذلك بسهولة بمطالعة محتويات فصول البحث أو الكتاب والتي لا "تترابط منطقيا كقصة متكاملة ومتسلسلة", وإنما يعمد الكاتب, ويظن واهما, أنه يربط تركيبة الكتاب أو البحث من خلال "العناوين نفسها", وهذا من أكبر الأخطاء الشائعة في الكتابات والبحوث العربية. فالعناوين لا تربط الأفكار, بل يجب أن تترابط الأفكار وتتسلسل منطقيا بذاته (كنص واحد متكامل من الصفحة الأولى حتى الصفحة الألف يتم بعد ذلك فصله بالعناوين وتقسيمه لفصول للتوضيح وإراحة القارئ في محطات فقط).